إباء دمعة

بقلم: جواهر علي الحمادي
السعودية

على سريرك كنت ممدة بإعياء، والأمراض تتمدد في كل خلية من خلاياك دون أن يحكم هذا التمدد أي قانون.. مرة تفيقين ومرة تغيبين طويلاً..

وحالما أفقت هذه المرة أخبرتك أن أخي أحمد في طريقه إلينا قادماً من قريته، فقد علم باستفحال مرضك، وبأن هناك سريراً في المستشفى ينتظر تمددك عليه، لحظتها شهقت وضربت كفاً بكف وأنت تقولين: أعطني الهاتف، ومددته بسرعة، فاتصلت على التموينات المجاورة، وطلبت الخضار التي يحبها أحمد، واللبن الذي يستحيل أن يتناول طعامه إلا بصحبته.

ثم أغلقت الهاتف متنهدة كمن تدارك وقوع مصيبة عظمى، ثم تمكن النوم منك بكل عمق.. وفجأة تعالى صوتك حالمة: أحمد.. أحمد.

آه يا أماه... وأنت تتشحين بالآلام، وتلتحفين بالإعياء مازلت تحلمين بنا، وإلى آخر لحظة تبحثين عما نحب، وتعدين لنا ما نشتهي احتفاءً بلقائنا، فلم نحن إذن لم نحتف بك قط؟!

لطالما انساب صوتك المتعب عبر الهاتف يسألني عن حالي، وأنت بالسؤال أولى، لطالما استجديتني حضوراً، واستجديتك كفاً عن هذه الملاحقة والإلحاح.

واليوم فقط.. اندفعت دمائي في شرايينك المتعبة عذاباً في محاولة أخيرة لبرِّك، لكني حينما حضرت إلى المستشفى، ورأيتك على سريرك الأبيض مستسلمة لغيبوبتك يئست من بقائك على قيد الحياة، ورحت أمهد طريق الحزن، وأحدث نفسي:

مسكينة.. لقد تصارعت الأمراض، داخلها حتى يئست من صرع بعضها بعضاً، فقرروا صرع الأرض التي هم عليها، فكنت الضحية.

من يدري! لعل لك درجة الجنة لن تبلغيها إلا بمعاناتك هذه.

❖❖❖

عجيبة هي غيبوبتك يا أماه.. حاولنا إيقاظك منها بإيعاز من الأطباء ولم نستطع، فخالد يهز كتفيك ويفتح عينيك، وهو ينادي:

أمي.. أفيقي.. أرجوك أنا خالد! أمي!

وهكذا يتناوب البقية دون جدوى. لكن حالما أدنو منك، وأفتح عينيك برفق، وأهمس في أذنيك بارتعاش:

أمي أمي أنا مها.. أنا مها.. أجدك تبدين ابتسامة تفيض بالصمت!

أتراك شممت رائحتي التي تحبين، فابتسمت ابتسامتك التي أحب؟!

لقد قلت ذات مرة: إن لي رائحة تبعث فيك نشاطاً تعجز عنه الأدوية، فلم تأبى رائحتي اليوم أن تمنحك نشاطاً كاملاً حياً كما أريد؟ أترى صلاحيتها انتهت بدنو نهايتك!

بكل أسف ازدادت حالتك سوءًا حتى جاءت اللحظة التي وقف فيها الطبيب مطرقاً، ليخبرنا بتوقف نبضك، وبأن حالتك ميؤوس منها. وأن مماتك أرحم من حياتك، ثم

التفت إلى إخوتي معزياً:

عظم الله أجركم، وأحسن الله عزاءكم.

لحظتها.. تمعرت وجوههم التي كان يسمع الطبيب خلفها أنفاساً مضطربة تكتم شهيقاً يملؤه البكاء، وكان يقرأ فيها كل يوم سطور آلام مقيدة لم تجزها الرجولة للنشر بعد!!

ثم تابع:

«ابكوا.. اغسلوا ما في نفوسكم بالدمع».

كانت كلمته الأخيرة هذه بمثابة حكم قاضٍ أعلن، ففجع المحكوم عليه؛ إذ لا رجعة فيه! فاندلعت نوبة بكاء موحدة مع أنه حكم بإطلاق سراح.. خالد، أحمد، وليد، محمد... لم يكن يقطع نوبتهم سوى نشيج كل واحد منهم.. إلا أنا فمازال ثمة وتدٌ ما يصر على ثباتي ورباطة جأشي مع أن حجابي المنسدل على وجهي سيمنحني فرصة البكاء دون أن يراني أحد.. وبصوت خافت متغلغل سمعت الطبيب يهمس لآخر بجواره:

«عجيبٌ أمرها مع أنها أنثى إلا أنها أقوى وأجلد!!»

❖❖❖

ودن أن أشعر دخلت مغسلة الأموات ولأول مرة.. ولم؟! لأغسل جسداً لست إلا قطعة منه.. دنوت، فوقع بصري على صدر طالما أودعته آلامي دون أن يضيق بها يوماً، واستطالت نظرتي حتى يئست من عودتها.. قاومتها، ورحت أواصل تغسيلها وأنا أصرف النفس إلى أي تفكير عداها، فلا ينصرف إلا إليها.. إلى أن انتهيت، ولم يبق إلا قبلة مرتعشة ندية بدموع تبحث عن منفذ، طبعتها على جبينها ثم خرجت...

❖❖❖

واليوم.. ثلاثون يوماً مضى على غيابك، وبين اليوم الأول واليوم الثلاثين جفت الدموع وحملت الأحزان حقائبها وغادرت القلوب، وقبل هذا ألقوا بك في زاوية مظلمة إلى الأبد وأنا.. للتو فقط أعلن قطار الحزن انطلاق صافرته في محطات شعوري، وهذا هو أعظم الأحزان، الذي لا يبدأ بقلبك إلا حينما ينتهي من قلوب الآخرين وبقيت قلوبهم شاغرة لأي فرح!

❖❖❖

والحزن الذي يندلع حال اندلاع المصيبة أهون بكثير من حزن لا يشتعل إلا بعد استيعاب حقيقة الحدث في وقت يكون قد انطفأ فيه حزن الآخرين، وبقيت وحدك تتجرعين الحزن الحقيقي دون أن تجدي أحداً يتقاسمه معك.

فليتك تطلين يا أماه، لتري كيف تتفنن ملذات الدنيا في استلال الحزن من النفوس، وتجعل أقصى ما يتذكرونك به تنهيدة يشوبها البرود تتلوها عبارة: غفر الله لها!

فأحمد عاد إلى قريته، ولم يعد يتصل بنا، وخالد غادر دارك إلى قصره الجديد في الحي الراقي، ووليد غرق في أعماله التي لا يعرف معجمها معنى كلمة انتهاء، أما محمد فقد سافر إلى أمريكا هو وأسرته للسياحة، فمن حقهم أن ينسوا الحزن!!

أتصدقين؟ لقد نسوك، أما الأثاث الجامد في غرفتك فقد ألفيته ما زال يتحدث عن رحيلك بصوت مخنوق، فلم هم لا يتحدثون؟!

كيف نسوا حزناً من رآهم فيه أيقن أنه لن يدعهم حتى يقضي عليهم، وإذ بهم يقضون عليه!

كيف غاضت في مجاهل ذاكرتهم مرارة صورة عاشوها بأنفسهم، وتخيلتها مجرد تخيل، ولم يغيضها مغيِّض؟!

رأيتهم وكأنهم يهيلون التراب عليك، ثم يسوون القبر، وفجأة.. يندفع «وليد» من بين الجموع؛ ليرتمي على قبرك، ويتمرغ في ترابه الرطب ونشيجه يتعالى بحدة، وهو يصرخ:

«أمي لا تموتي.. أمي لا تتركيني..»

فتمتد له أيادي إخوتي لاقتياده، وهم يتمنون في قرارة أنفسهم لو جذبهم بشدة؛ ليرتموا ويتمرغوا معه، ويبكوا بمرارة أشد.

هذه حساسية «وليد» التي كنت الدرع الوحيد لحمايتها إذا ما أصابنا مصاب بقولك:

«إياكم أن يعلم وليد بالأمر، لا تخبروه، فهو حساس لا يتحمل».

وغبت الآن، ولم نجد أحداً يمنعنا من أن نفجعه بالمصاب، لأنك غدوت المصاب نفسه!

وحالما أحسست بارتخاء الوتد كان الانهيار قد بدأ يندفع إلى مساحات شاسعة من كل شريان، فسرت في رغبة مستميتة بالبكاء تصارعني أياماً طويلة وأصرعها، لم أجد بداً من رفع لواء استسلامي لها بعد أن رفعت مسبقاً لواء انتصاري عليها■